الفروسية العربيـــة

للمجور كلوب

ترجمة الأستاذ جميل قبعين

— ٢ —

الحرب

لا تتجه نظرة البدوى فى الحرب إلى ربح المعركة كما قلت سابقاً . وإنك لا تجد فرقاً بين فرسان القرون الوسطى فى أسبانيا أو مناصرات ريكاردوس قلب الأسد فى حروبه عندما يصطف الفرسان ويتبارز الفارس والفارس وبين حروب البدو ، وقد انقرضت هذه العادة منذ عشرين سنة فقط . إن حب المفاخرة وتطلب الشهرة واحترام تقاليد أساليب الحرب مع عدم وجود الكراهية الشخصية بين الفريقين المتحاربين هى الروح التى تسيطر على المعارك . وإن البدوى يجد فى الهجوم ليلا على مخيم العدو نذالة بل جبنا ؛ وإن معاونة الجرحى وعدم التعرض للنساء فى الحرب أمر عادى لديه . ومن تقاليد البدو وعاداتهم إذا ما التقطوا جريحاً أو أخذوا أسيراً أن يعاملوه باحترام ويقدموا إليه طعاماً وشراباً ومأوى إلى أن يشفى، ومن ثم يزودونه بالمؤونة ويسير ليذهب إلى قبيلته بسلام . إن العقيدة أو الفكرة التى تخرج بها من كل هذه التقاليد والاعتبارات هي أن البدوى يهتم أن يحارب بشرف قبل أن يهتم بربح المعركة

والمرأة هى التى تثير حماسة الرجال فى الحرب ، وكما قلت تحكم على بطولتهم ، وقد جرت العادة أن تحضر النساء الموقعة راكبة فوق الجمال فى كتبان[1] مزينة ، وكثيراً ما تبرز المرأة من الهودج محلولة الشعر كاشفة الصدر وهى تتغنى بأعمال البطولة راوية أعمال الأبطال السابقين، وكثيراً ما تنادى الفرسان بأسمائهم؛ ولا أرى ضرورة لأن أذكر أن الطرفين كانوا يعفون عن النساء أو لا يقربونهن

(١) الكتب أو الغبيط نوع من الهوادج ، قال امرؤ القيس :
تقول وقد مال الغبيط بنا معاً عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
(المعرب)

ومن جهة أخرى فان الابل كانت تلعب دوراً هاماً فى الحرب. إن الابل من أهم الضروريات للبدوى ، ومن المعتاد أن اغتنام قطيع الابل دليل على انتصار الفريق الغانم على الآخر ، ولما كانت الإبل هى ثمرة الحرب فقد كان شيوخ البدو يحرصون عليها ويتوارثونها جيلاً بعد جيل، وقد جرت العادة أن يسمى الشيخ قطيعه باسم خاص . إن هتاف فرسان البدو فى الحرب ينحصر فى اسم حبيبة الفارس أو باسم أخته أو باسم قطيع جماله . فيهتف مثلا (أنا أخو جوزا — فيصل) أو (لعيون حميده) أو (خيال العليا — النورى) والعليا قطيع من الإبل

ومن الحكايات التى تروى عن سلطان بن سويط ، وقد كان شيخاً لعشيرة الظفير منذ ثلاثة أو أربعة أجيال ، أن جماعة نهبت أموال فتاة على حدود الحجاز؛ ولما كان سلطان مشهوراً بشجاعته وفروسيته فقد هتفت الفتاة: (أين أنت يا سلطان لتدافع عن فتاة) . وقد تناقل العرب هـذه الحكاية حتى وصلت إلى سلطان فأقسم لينتقمن لها ، وكيف لا وقد استغاثت به ولو على بعد مئات الأميال

وسأروى لكم حكاية حقيقية وقعت منذ جيلين فقط :
— اشتهرت فى الجنوب قبيلتا عتيبة وقحطان بعدائهما الشديد وكثرة غارات بعضهما على بعض ، وقد كان لابن هادى شيخ قحطان ابنة صارت مضرب المثل عند العرب فى الجمال — وقد رفضت كل الذين تقدموا لخطبتها . وكان ابن حميد[1] اشتهر بشجاعته وفروسيته وكثرة غزواته الموفقة التى شنها على قحطان حتى أقسم شيوخ قحطان يوماً أنهم سينحرون إبلهم فى اليوم الذى يأسرون به ابن حميد . وقد حدث أن تقدم رجل لخطبة ابنة هادى ، فلما راجعها والدها بهذا الشأن أجابته قائلة : إننى لن أتزوج إلا أشجع فرسان العرب وأكرمهم وأجلهم . وقد كان رجل صليبي يسترق السمع فسمع ما دار من الحديث بين الوالد وابنته، وعند ما خرج والدها دخل عليها خدرها وقال إن هذه الصفات لم تجتمع يا مولاتى إلا لابن حميد . فأجابته : ليتنى أراه ولو مرة

(١) محمد بن هندى بن حميد شيخ فريق برقة من عتيبة وهو شيخ قبيلة عتيبة كلها وتنقسم هذه القبيلة إلى فخذين كبيرين برقة والروقة وقد توفى معمراً . وولده نايف موجود الآن فى العراق إذ فر إليها من حبسه فى الرياض .
(المعرب)

واحدة . فنقل الصليبي هذا الحديث لابن حميد . وقد كانت شهرة بنت هادي وصيت جمالها قد سبقا وصول خبرها إلى ابن حميد فكتم هذا الحديث في نفسه حتى إذا جن الليل غادر منازل عشيرته ذاهبا إلى منازل قحطان وتسلل بين البيوت حتى دخل خيمة الفتاة وأيقظها بلطف وعرفها بنفسه ففرحت به، ولكن لم تكد تهدأ أعصابها بعد فرحها بلقائه حتى جزعت عليه لهذه المغامرة فطمأنها. وظلا يتسامران حتى طلع الفجر . وكانت العادة أن يجتمع البدو عند شيخ القبيلة صباحا لشرب القهوة وللتداول في شئون العشيرة . فلما اجتمع الشيوخ خرجت الفتاة إلى والدها قائلة : يا أبت أطلب إليك أمنية فهل تعدني بإجابتي إليها ؟ فأجابها : إن أمنيتك مستجابة قبل أن تطلبيها . عندئذ قالت اشهدوا يا شيوخ قحطان على قول والدي . فأجابوها : نحن شهود على قوله . فقالت : حينئذ أريد أن تُبقي على بن حميد. فأجابها والدها لا تكوني سخيفة ! هذا عدو قبيلتنا ؛ وعلى كل حال بيننا وبينه ما تناميل على الأقل. فأجابته : كلا إنه في هذه الخيمة. فقام والدها يريد الرجل لينتقم منه فاستوقفته منادية شيوخ قحطان الذين تدخلوا في الأمر وذكروه بوعده، فخضع للأمر الواقع، وهنا خرج ابن حميد ليتزوج حبيبته بينما نحر شيوخ قحطان ابلهم لا لأمر ابن حميد بل احتفاء بزواجه من فتاتهم .

هذه الحكاية ترينا بجلاء أن غاية البدوي الفخر والمجد لا النصر، والحرب وسيلة المجد وليست وسيلة الكسب. وأمثال هذه الحكاية كثيرة لا تحصى .

لا يكون حديثنا عن الفروسية تاما دون التحدث عن صلاح الدين . في الحقيقة أن صلاح الدين كردي، وقد قاتل لأجل الدين لا لأجل المجد والشرف ، ولكن روح الفروسية ظهرت بجلاء في كثير من أعماله . حينما حاصر صلاح الدين قلعة الكرك لأول مرة كان أميرها همفري أوف تورن يعقد قرانه على الزابث أخت ملك القدس. ولما علم صلاح الدين بالأمر منع جنوده عن رمي السهام على القلعة، كما أن صاحبها أرسل إلى القائد المسلم الخبز والخمر واللحم من وليمة العرس . ولما خرج ريكاردوس قلب الأسد للدفاع عن يافا بالبركان راكبا دابة استعارها من أحد السكان، ولكن صلاح الدين الشهم أرسل إليه فورا جوادين مع خادم ليركبها البطل العربي في المعركة .

ومثل آخر من أمثلة الفروسية ما فعله القائد الفرنسي الباسل في فونتانتوني إذ دعا الحامية الانكليزية إلى إطلاق النار أولا .

إننا في وقتنا الحاضر قد نزدري مثل هذه الأعمال ولكن يجب علينا ألا ننسى أن عقيدة البدوي في الفروسية هي القيام بالأعمال التي تنيل المجد والفخر لا كسب المعركة .

الكرم

يحمل الكثيرون من الأوروبيين — كنتيجة لزيارتهم للشرق — فكرة سيئة عن العرب لكثرة المتسولين ، ولكني أصرح بأن الذين يتسولون هم الطبقة الدنيا من العرب؛ أما الطبقات الأخرى حتى التي يكثر فيها الفقراء فهم لا يتدانون لمثل هذا العمل، وإذا ما أخذ البدوي دراهم (بخشيشا) فانه يأخذها ليكرم بها . لأن البدوي كما قلت لا يهتم لمتاع هذا العالم — وهو لا يتردد أبدا في نحر آخر ما يملكه من الابل لإطعام ضيف يمر به ولو كان هذا الضيف غريبا .

توجد قبيلة من البدو قاطنة في شمال الحجاز فقيرة معوزة حتى أن أفرادها لا يملكون خياً يأوون إليها وهم يقطنون الكهوف ، ولكنهم إذا ما رأوا ماراً بالطريق ركضوا نحوه وأحضروه ونحروا له ما يملكون من المواشي

« يتبع »

جميل قبعين

لحن الخلود

هو قطع حية من أدب القوة والجمال . هو خلاصة السحر الحلال والمثل الأعلى لشعر الشباب

للشاعر مصطفى علي عبد الرحمن